الفصل الثاني

كان والدي ترايويل مشهوراً جدّاً في شبابه. إنّه مُزارِع الآن، شأنه في ذلك شأن والده وجدّه من قبله. فمجرّد أن تولَد مالاويّاً، هو أمر يجعلك مُزارِعاً بصورة تلقائية. أعتقد أنّ الأمر منصوص عليه في مكان ما من الدستور، وكأنّه قانون متوارَث من أيام النبي موسى. إن لم تكن ترعى الأرض، فإنّك تبيع وتشتري في السوق. يُذكَر أنّ والدي – قبل أن يهب الأرض نفسه، كان يعيش حياة مفعمة بالحيوية والمغامرة بعمله تاجراً متجوّلاً.

كان ذلك في أثناء إقامته في دوا؛ البلدة الصغيرة الواقعة جنوب شرق ماسيتالا، التي تجثم عالياً بين التلال السُّمر. ففي سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته، كانت دوا مكاناً ينبض بالحياة، حيث يمكن لشاب جني كثير من المال. كانت مالاوي حينئذٍ تحت حكم هاستينغز كاموزو باندا؛ وهو متسلط قوي حكم البلاد أكثر من ثلاثين عاماً.

كان المالاويون كافة يعرفون قصة باندا مع تقدّمهم في السنّ. فعندما كان باندا صبيّاً صغيراً في كاسونغو، يعيش في ظلال جبل كبير حيث هَزم شعبُ تشيوا شعبَ نغوني، مشى هذا الصبي حافياً ألف ميل، حتى وصل إلى مناجم الذهب في جنوب إفريقية للعمل هناك. ثمّ مُنِح لاحقاً منحة للدراسة في بعض جامعات إنديانا وتينيسي، حيث نال هناك شهادة في الطب. بعد ذلك، عمل طبيباً في إنجلترا قبل أن يُقرِّر العودة إلى مالاوي لتحريرنا من الحكم البريطاني. وبذا، فقد أصبح أول قائد عظيم لبلادنا. وفي عام 1971م، منحه برلماننا لقب **رئيس مدى الحياة** بعد ضغوطات كبيرة.

كان باندا رجلاً شديداً بحيث طلب إلى تجار مالاوي كافة تعليق صورته في متاجرهم؛ على ألّا تُعلَّق أيّ صورة في مكان أعلى منها. وفي حال لم تُعلِّق صورة لرئيسنا الغالي، وهو يلبس بزّة من ثلاث قطع ويحمل مضرب ذباب، فقد كنت تدفع الثمن غالياً. كانت تلك حقبة مخيفة ورابكة من تاريخنا. وقد منع باندا أيضاً النساء من ارتداء السراويل أو أثواب فوق الركبة. أمّا الرجال فكان شعرهم الطويل يودي بهم إلى السجن. في حين كانت القُبل ممنوعة في العلن، حالها حال الأفلام التي تحوي مشاهد من هذا القبيل.

لقد كره الرئيس التقبيل لدرجة أنّ الناس يخشون – حتى هذه اللحظة– تبادلَ القُبل على مرأى من الآخرين. والأدهى من ذلك، رجال الشرطة والمخبرون (عصابة السفاحين التابعة لباندا) الذين كانوا يلقون القبض على كلّ مَنْ يُشكِّك في سياساته. وقد أفضى ذلك إلى زجّ كثير من المالاويين في السجن، وتعذيبهم، وحتى رميهم في حفر تحوي تماسيح جائعة.

وعلى الرغم من ذلك كلّه، فقد كان التجار يعيشون حقبة تميَّزت بالنشاط والانتعاش الاقتصادي. وقد روى والدي قصصاً عدّة عن التطفل بركوب الشاحنات عبر الأرياف وصولاً إلى بحيرة مالاوي، حيث كان يشتري حزماً من السمك المجفّف، والأرز، والثياب المستعملة ليبيعها في سوق دوا. يُذكَر أنّ بحيرة مالاوي هي من أكبر البحيرات في العالَم، وتشمل النصف الشرقي من البلاد. إنّها كبيرة كالمحيط. وقد شاهدتها أول مرّة حين كنت في سنّ العشرين، مع أنّني ترعرعت في مكان يبعد عنها مسافة ساعتين فقط. ولكن، عندما وقفت على ضفافها آنذاك، ونظرت إلى مياهها اللامتناهية، سرعان ما راود قلبي شعور بحب غامر تجاه بلدي.

كان التجار في وقت ما يتنقلون بوساطة البحيرة إلى مدن نكهوتاكوتا ومانغوتشي على متن سفن بخارية، مثل: إيلالا، وتشاونسي مابيلز، يُقدَّم فيها طعام شهي، وما ترغبه الأنفس، وفي ذلك الشرب، والرقص على السطح في أثناء الرحلة. وقد اعتاد والدي عقد المقايضات عند البحيرة مع رجال أعمال مسلمين من شعب ياو، الذي سكن ذلك الجزء من البلاد.

وصل شعب ياو إلى مالاوي منذ أكثر من قرن من الزمان، عن طريق بحيرة في موزمبيق. وقد أقنعهم عرب زنجبار آنذاك على اعتناق الإسلام، ثمّ جنّدوهم لاحتلال شعب تشيوا – الذي أنتمي إليه– وجعل أفراده عبيداً. لقد غزوا قرانا، وقتلوا رجالنا، وأرسلوا نساءنا وأطفالنا إلى مالاوي في قوارب عبر البحيرة. وما إن وطأت أقدامهم أرضها حتى اتُّخذوا عبيداً، وقُيّدوا من أعناقهم، وأُرغِموا على السير مشياً عبر تنزانيا. استغرق هذا الأمر ثلاثة أشهر، فَقَدَ أغلبهم خلالها حياته قبل الوصول إلى المحيط. بعدئذٍ، عمد شعب ياو إلى القبض علينا والتفاوض مع البرتغاليين لمقايضتنا بالسلاح والذهب والملح.

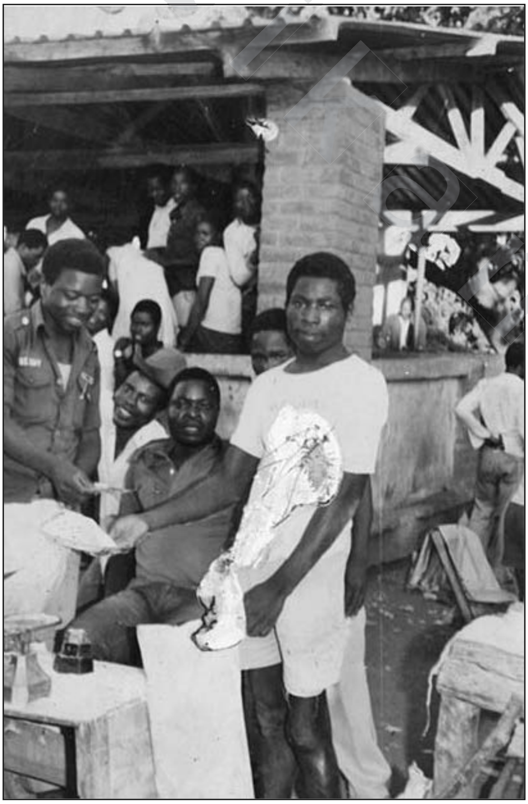
البابا في أثناء شبابه، يجلس خلف كشكه (الرجل ذو القميص الداكن في الوسط) في سوق دوا برفقة أصدقائه.

ولولا المبشِّر الاسكتلندي العظيم ديفيد ليفينغستون، لاستمر الخلاف بين شعبي ياو وتشيوا إلى يومنا هذا؛ إذ عمل ليفينجستون على إنهاء العبودية، وفتح مالاوي للتجارة، وبناء مدارس وإرساليات جيدة. كما نال الشبان نصيباً من العلم والمعرفة، ما ساعدهم على جني المال. وحين أصبحت تلك الفرص الاقتصادية متاحة للجميع، زالت الخلافات بين الشعبين. واليوم، فإنّنا نَعُدّ شعب ياو أخوة لنا؛ إذ تنحدر أمي من شعب ياو، وهذا يعني أنّني نصف ياو.

روى لي والدي قصصاً كثيرة عن بلدة مانغوتشي الصغيرة الواقعة على الجهة الشمالية من البحيرة، قرب مصب نهر شاير. علماً بأنّ الطريقة التي يصف بها هذا المكان، والتي تصوِّره كبازار (سوق) في شمال إفريقيا، لم أعرف بشأنها سوى في الكتب التي قرأتُ. كانت الشوارع تغص بالتجار القادمين من شتى أنحاء مالاوي، وزامبيا،

وتنزانيا، وموزمبيق، حيث تختلط لغاتهم وأغانيهم المختلفة برائحة الأجساد المتعرّقة، والتوابل، والسمك المقلي، والذرة المشوية. وسرعان ما كانت الجيوب المملوءة بالمال تفرغ في أوكار السكر،وفي أحضان سيدات الليل المحترفات، اللاتي كنّ يغوين التجار إلى غرفهن للحصول على حمام ساخن وطعام باهظ الثمن، وأنواع أخرى من المتعة لم أفهمها إلّا عندما كبرت. وكان التجار عادة ينجرفون نحو هذا النوع من الملذات التي زخرت بها هذه الأماكن، فيبذرون ا نقودهم كلّها على ذلك. وما زال والدي يتذكّر حال بعض هؤلاء الرجال وهم يهربون بعيداً، مرتدين سراويلهم الداخلية فقط.

ترك كثير من أولئك التجار زوجةً وأطفالاً في أوطانهم، إضافة إلى المومسات. حدث ذلك قبل أن يقابِل والدي والدتي، حين كان شابّاً يشغله الترحال عن الالتزام بزوجة وعائلة. نعم، كان لديه بعض العشيقات، لكنّه عموماً بقي بعيداً عن فتيات الحانات. وقد أفضى تردّده في التعامل مع أمثالهن إلى جعل الناس في السوق يمنحونه لقب البابا. وكثيراً ما كانوا يغيظونه مستخدمين كلمة من لغة تشيتشيوا (يا بابا). **ما الخطب؟ هل سقطت عن شجرة باباية وحطّمت خصيتيك؟ لا تُصغِ إلى أمك؛ فهؤلاء الفتيات لن يحرقنك!.**

كان والدي يتحمّل سماجتهم تلك؛ فلم يكن لديه خيار آخر. وسرعان ما التصق اللقب بوالدي، لدرجة أنّ أحداً لم يعرف أول من تلفَّظ به.

كان والدي رجلاً ضخماً، وكانت قدرته على معاقرة الخمر هائلة. وذات ليلة، دخل والدي برفقة عدد من أصدقائه إلى متجر (بقّالة) دوا العام عند الساعة الخامسة مساءً، وقال بعدها:إنه شرب ستّاً وخمسين زجاجة جعّة تحمل علامة (كارلسبيرغ)، ثمّ عاد إلى البيت عند الثانية صباحاً، وروى ما حدث. كانت جلسات الشرب تلك تقود أحياناً إلى شجار بالأيدي، الأمر الذي كان يَعُدّه والدي نوعاً من الرياضة.

ذكرت فيما مضى أنّ والدي كان أحد أشهر التجار في المنطقة، لكنّ تلك الشهرة لم يكن مردّها الحنكة في التجارة فقط، أو القدرة على شرب صناديق من الجعّة. لقد عُدّ والدي أسطورة لقوته. ويوجد لدينا مثل في مالاوي يقول: **رأس واحدة لا ترفع سقفاً.** أعتقد أنّهم لو عرفوا والدي لما قالوا ذلك.

obeikandi.com

نحتفـل – نحن معشر المالاويين– في السادس من شهر تموز كلّ عام بعيد الاستقلال عن إنجلترا، تماماً كما يفعل أخوتنا في الولايات المتحدة في الرابع من الشهر نفسه. نحتفل أيضاً بهذا العيد بطريقة تشبه الطريقة المتبعة في الولايات المتحدة؛ حفلات كبيرة تملؤها الموسيقا، والرقص، واللحم المشوي اللذيذ. في أحد تلك الأعياد، جاء عرّاب موسيقا الريجا فـي مالاوي روبرت فومولاني للغناء في قاعـة منطقة دوا، فصمّم والدي (كان حينها في سنّ الثانيـة والعشريـن) على حضور الحفـل؛ إذ كان روبرت فومولاني المغنـي المفضّل بالنسبة إلـى والـدي، الذي تميَّزت أغانيـه عادة بوصف الصـراع الذي يخوضه الفقـراء، وبكلماتها المستمدة من تربة مالاوي الدافئة. وكان والدي قد حضر عروضاً لفومولاني قبل ذلك في كلّ مـن: كاسونغو، وليلونغوي، ونكهوتاكوتا، ونتشيسي، وكان هذا المغني يرتدي كلّ مرّة قميصه الأبيض المشهور الذي يجعله يبدو أنيقاً.

بـدأ طابـور (صف) الراغبين في حضور حفل فومولاني يـومَ الاستقلال بتكوّن في وقت مبكِّـر، يتزامـن مع وقت دخول والـدي الحانةَ في المتجـر العام. مرّت ساعـات على وجوده هنـاك، وحين خرج متخبِّطاً مترنِّحاً، سمع صوت فومولاني الجميل يصدح في أرجاء البلدة. لقد بدأ الحفل منذ مدّة، ولا شكّ.

أسـرع والدي صـوب القاعة ليجد طابوراً من الأشخاص ينتظـر الدخول. إذا حدث أن وقفـت بجانـب إفريقي في مطـار أو موقف حافلـة، فستعرف حتماً أنّنـا لا نحب الوقوف في طوابيـر. قد نفوّت شيئاً، أليس كذلك؟ لم يضيّـع والدي أيّ وقت، فشقّ طريقه إلى المقدمة، ليوقفـه شرطـي عند الباب، قائلاً: **لقد اكتمل العدد. لا يُسمَـح لأيّ شخص آخر بالدخول.** فأسـرع والدي ليريـه تذكرة الحفل، لكنّ الشرطي لم يتزحزح. ولما كان والدي كان مقداماً، وثمـلاً بعض الشيء، فقد دفع الشرطي جانباً، وانضـم إلى الحشود بسرعة. وهنـاك اكتشف كـم كانت الحفلـة رائعة؛ فروبرت فومولاني على المسرح برفقـة فرقته التي تُدعى ليكهوبولا ريفـر دانس؛ كان يرتدي قميصـه الأبيض والجيتار حول رقبته. أمّا العمّال في الخلف فكانوا منهمكيـن في شـواء ضخم، ويديرون أكشـاك كانينيا المليئة بلحم الماعـز اللذيذ. زِدْ على هذا، كانت هنالك كمية كبيرة من جعّة كارلسبيرغ.

شعـر والدي بالحماس، فحشر نفسه بين حشد الأجسام المتعرّقة حتى وصل المقدّمة. كان فومولانـي يُغنّي إحدى أفضل أغنياته التي تُدعى (أختـاه)، وهي تتحدث عن زوجته التي تركته.

غنّـى قائـلاً: سيدتـي، **لا تهيننـي اليـوم لأنّني فقيـر؛ فأنـتِ لا تعرفين مـا يخبئ لي المستقبل....**

بـدأ والدي الرقص، وبدا أنّه نُوِّم مغناطيسيّاً بفعـل الموسيقا. لكنّه لم يكن يرقص أيّ رقصـة؛ فقـد كان رجلاً ملبوسـاً، رجلاً يثق كلّ الثقـة بأنّه أعظم راقص علـى وجه الأرض. أصبحـت ساقـاه وذراعه رشيقـة كالغزال. أمّا جسـده الضخم فقفز في الهـواء مثل جندب طائـر. يا لها من حركات! ولكـن، عندما فتح عينيـه، أدرك أنّ الموسيقا كانت متوقّفة. كان الجميـع واقفاً بصمت. أمّـا روبرتو فومولاني، الأب الروحي للموسيقـا الوطنية، فكان يحدِّق نحو الأسفل بغضب.

أشار إلى والدي، ثمّ قال: **فليبعِد أحدكم هذا السكّير من هنا. إنّه يفسِد عرضي!**».

صرخ الحشد: «**إنّه هنا! خذوه بعيداً!**».

صُـدِم والـدي؛ فكيف لهذا أن يحدث؟ كلّ ما فعله هـو الاستمتاع بوقته، وها هو ذا يوبَّخ الآن كطفل من بطله العزيز. لقد شعر بالخيانة؛ فعدَّل نفسه، ثمّ أشار إلى المسرح، قائلاً:

> **سيد فومولاني، لـديَّ دعـوة لحضور هـذه الحفلة. جميـع المـالاويين الموجودين هنـا يحتفلون باستقلالهم الغـالي على قلوبهم، وأنـا أفعل الشيء ذاته. أنا لست الوحيد الثمل هنا كما تعرف. وبعيداً عن ذلك، أليست وظيفتك هنا هي الغناء والترفيه؟**

أُحيطت رقعة الرقص بمجموعة من رجال الشرطة والمخبرين المتحفزين للانقضاض.

سيـد فومولاني، كلّ مـا أريـده هو الرقص بسلام، قالها والدي، ثـمّ استدار مواجهاً الشرطة. **ولكن، لما كنت طلبت إلى هؤلاء الرجال إبعادي، فأقول لك مرحباً بهم!**.

انقض رجال الشرطة على والـدي، وانهالوا عليه ضرباً بالقبضـات والمرافق. تراجع الحشـد إلـى الخلف بسرعة، وخُيِّل للجميـع أنّهم تولّوا أمر والدي علـى أحسن وجه. وفجأة، بدأ رجال الشرطة بالتطاير بعيداً عن الكومة كأنّهم يصارعون إعصاراً، ثمّ أخذوا يترنّحون فـي الهـواء كأكياس الطحيـن، وبدأوا يعرجون من الألـم. حينئذٍ، ضجّـت القاعة بالتشجيع والتصفيق عندما قُذِف آخر شرطي باتجاه الجدار.

صرخ والدي: **مَنِ الآتي؟ سأقاتلكم جميعاً.**

بعد ذلك، جرَّب بعض المخبرين حظّهم، فلاقوا المصير نفسه. ثمَ حاول رجال الشرطة والسفاحـون الحكوميون تقييد يدي والدي على مدار نصـف ساعة، لكنّهم كانوا يفشلون في كلّ مـرّة. وحيـن خارت قوى والدي بسبب الشجار، وافق أخيـراً على أن يُقبَض عليه، ليقضي الليلة في الحبس بعدما قال لهم: **سأخضع؛ لأنّني أحترم حكم القانون فقط.** ولكن، كان له شرط واحد؛ هو السماح له بتناول بعضٍ من شواء يوم الاستقلال. وبعد التهام طبق شهي من كانينيا، غسل البابا يديه، ثمّ ذهب مع الشرطة.

كانت تلك قصة والدي التي تشاجر فيها مع اثني عشر رجلاً، وتغلَّب عليهم.

سرعـان ما انتشـر خبر هذه القصة في المنطقة؛ فأخذ النـاس يقدِّمون له التهنئة في الحانات والأسواق الواقعة عند ضفاف البحيرة، وانتعشت أعماله نتيجة لما حدث. استقطبت تلـك الشهـرة أيضاً كثيراً من اللصوص الذين كانوا يكمنون في الأسـواق؛ إذ قالوا لوالدي، مربّتيـن علـى ظهره:**أنتَ قوي جدّاً، دعنا نستفد من قوتك في جمـع المال، فنصبح أغنياء جميعنا.**

لكـنّ والـدي لم يكـن مجرماً؛ فكلّ ما أراده هـو العمل بجدّ، لكسب رزقـه، وشرب جعّة كارلسبيرج. أمّا إذا رغب أحد في الشجار فذلك أمر يمكن ترتيبه.

من جانبه، كان البابا يراقِب فتاة منذ مدّة، مع أنّ أصدقاءه لم يلاحظوا ذلك في بداية الأمر. كانت هذه الفتاة تظهر في السوق كلّ صباح في ساعة معينة، ثمّ تختفي بين الحشود، ثـمّ تظهـر بعد ساعة حاملة حزمة من الخضار أو كيساً مـن الطحين، وتتابع طريقها باتجاه الحيّ الكائن أسفل التل. لقد أصبحت تلك اللحظات المعدودة أهم ما في اليوم بالنسبة إلى

والــدي، وكان يحرص دائماً على البقاء في كشكــه ليتمكّن من رؤيتها. كان هنالك شيء فيها يغيِّره، مع أنّه لم يسمع صوتها قبلاً. هل حزرتم مَن هذه الفتاة؟ إنّها والدتي، آغنس.

لا شــكّ فــي أنّ والدي لم يكن موفَّقاً في التمويه؛ فقد كانت والدتي على دراية بنظراته، وبالطريقــة التي كان يحدِّق بها، والتــي كانت أشبه بجرو يناظر باب قنّ الدجاج ولا يدري ما يفعل. لذا، فقد سألت عنه في المنطقة، وعرفت السمعة التي يتحلّى بها. ولسبب ما، جعلتها قصصــ الشجار والسلوك السيئ تشعر بالإثارة. كانت لا تطيق صبراً، وتضيق بها الحال كلّ يوم حتى ترسِلها والدتها إلى السوق. وكانت كلّما دخلت بين صفوف الأكشاك الخشبية، قفز قلبهــا كطبول تشيــودا التي تعزف على رقصات الأطفال، لكنّهــا كانت – في الوقت نفسه – حريصة على عدم إظهار ابتسامتها، وإخفاء مشاعرها؛ فهي لم تكن صيداً سهلاً.

استمــرّت لعبة التحديق شهــوراً عدّة، وكانــت والدتي تسأل نفسها: متــى سيُقدِم ذلك الرجــل على خطوته؟ إذا كان قويّــاً وشجاعاً كما يقولون، فلِمَ هو خائف منها؟ (بحسب رواية والــدي، كانــت والدتــي أبعد من أن يلحــق بها، فضلاً علــى شعوره بالخــوف والرهبة). لذا، قــرَّرت والدتي – في نهاية المطاف– اختبار هذا الرجــل الضخم القوي. ففي صبيحة أحد الأيــام، شاهدهــا والدي وهي تدخل الســوق، لكنّها سرعان ما غابت عــن ناظريه كما جرت عليه العادة. ولكن، هذه المرّة، فعلت والدتي شيئاً مختلفاً؛ إذ سلكت طريقاً آخر عبر السوق؛ طريقــاً يقودهــا باتجاه والدي مباشرة، حينئــذٍ، شعر والدي بالتوتر، لكنّــه كان يعلم أنّ تلك الفرصة لن تلوح له مرّة أخرى. تزاحمت الأفكار في مخيّلته، وأيقن في قرارة نفسه أنّ الوقت قد حان. ولكن، ماذا عساه يقول؟ لم يملك وقتاً للتفكير؛ فوالدتي أصبحت جانبه في غضون ثــوانٍ. كانت أقرب إليه من أيّ وقت مضى، ورؤيتهــا جعلت قلبه يخفق بشدّة كأنّه سيقفز من بين ضلوعه.

تحلّــى بالشجاعة بطريقة ما، وقفز من فوق نضــده، ثمّ صرخ في أثناء مرورها، قائلاً: **أنتِ أجمــل امــرأة رأتها عيناي!**. حينئــذٍ، استدارت والدتي، أمّا والــدي فوقف في منتصف الطريق فاتحاً ذراعيه وعيونه تناظِر عينيها.

قال: **لقد أحببتك مُذْ شاهدتك أول مرّة، وأريدك زوجة لي.**

كافحــت والدتــي للحفاظ على رباطــة جأشهــا، قائلة: **علـيَّ أن أُفكِّر في الأمـر؟**، ثمّ استدارت وغادرت.

لــم يمنحهــا والدي وقتاً طويــلاً؛ ففي ظهيرة ذلــك اليوم، ذهب إلى بيتهــا طالباً يدها مــرّة أُخرى. ثمّ كرَّر الأمر في اليوم اللاحق. لكنّ شقيقهــا الأكبر باكيلي حذّرها من والدي. كان باكيلــي تاجراً في السوق أيضاً، وعلى علم بسمعــة والدي. قال لها: **إنّه دائم التردّد على الحانات، يشرب ويفتعل المشكلات والمشاجرات. أختاه، هذا الرجل ليس بالزوج الصالح. فردّت عليه والدتي، قائلة: لا يهمني ذلك كلّه؛ فهو قوي جداً، وأنا أحبه.**

عندئــذٍ، أخبر باكيلي والديه بالموضــوع. كانت جدّتي روز امرأة صُلبة لدرجة أنّها بَنَتْ بيت العائلة بيديها، وشيّدت فرناً لصنع الطوب بنفسها، وهو أمر يتعذّر على كثيرين فعله في يومنا هذا، فضلاً علىما أنّه لا يناسِب النساء. أمّا جدّي فكان يعمل خياطاً في السوق.

واجه جدّاي والدتي، طالبيِّنِ إليها إيضاح هذا الأمر: **أخبرينا الحقيقة حالاً يا آجنس. هل هذا الرجل جادّ في طلبه؟**

قالت والدتي **نعم، إنّه جادّ حقّاً.**

وقــد تَبيَّن – فيما بعد – أنّ جدّي كان قد تقدّم لخطبة جدّتي بالطريقة نفسها تقريباً. ولكــن، بعــد أن رآها ترقص في إحدى منافسات القرية. وفي ذلك، يقول جدّي: **إنّ الطريقة التــي كانــت ترقص بهــا أسرت قلبــي. قلت لنفســي: سأتزوج تلــك الفتاة. بعد ذلــك، أرسل جدّي فتاة صغيرة من القرية لتخبر جدّتي برغبته في التحدث إليها، ثمّ واجهته جدّتي بنفسها، قائلة: أتريد التحدث إليَّ؟ فلنتحدث إذن. ماذا تريد؟**

أجاب: **أرغب في أن تصبحي زوجتي.**

والآن، مــاذا بوسع جــدّاي أن يقولا؟ بعد ستة أشهر، تزوجــت آغنس والدي، وفي العام اللاحق ولدت شقيقتي آني. لكنّ والدي ظلّ البابا على الرغم من تلك الأحداث كلّها.

لم يغيِّر والدي شيئاً من سلوكاته وتصرفاته بعد الزواج، وسرعان ما بدأت حياة السكر التي يعيشها تؤثر سلباً في حياته الزوجية. سئمت والدتي من عودته إلى البيت ثملاً تفوح منه

رائحــة الخمر، وكان الجدل والخصــام هما سيدا الموقف في كثير مــن الأحيان. لقد كانت حقبــة مظلمة؛ حقبة شهدت وفاة بعضــ أصدقاء والدي المقرّبين أو سجنهم، واختفاء بعض آخر نهائيّاً.

ففــي بدايــة الأمــر، أُصيــب صديقه كافو بمرضــ السيلان الــذي يُعــرَف عندنا باسم **القنابــل**، بعــد أن نقلت له إحــدى مومسات الحانات العــدوى. فأصبحــت شرايين خصيتيه متورّمــة وعفنــة، ثمّ تفجّرت في أحد الأيــام، ليموت كافو بعدها. وهنــاك صديق آخر يُدعى موانــزا، تعرّض للضرب حتى الموت في حانة أثناء شجــار على إحدى الفتيات. فقد ارتكبت المومســ الحديثــة العهد في القرية خطأً جسيماً بعدما غازلــت موانزا وصديق له في الوقت نفسه؛ إذ اختلفا على مَنْ يحقّ له اصطحاب الفتاة إلى بيته آخر الليل، فقرّرا خوض منازَلة. بــدأ الأمر بسيطاً، لكنّه سرعان ما انتهــى بموت موانزا غارقاً في بركة دم. أمّا المومس فقد هربت قبل أول لكمة.

من جانب آخر، كان هنالك واعظ مشهور في دوا يُدعى الموقر جيه جيه تشيكانكهيني، وهو من الزبائن الدائمين لوالدي. كان الموقر جيه جيه راعي إحدى أكبر الكنائس المشيخية فــي دوا، إضافة إلى خمس وعشرين كنيسة أصغر فــي المنطقة. وقد جرت العادة أن يتوقّف عنــد كشك والدي لشراء كيس من الأرز، ثمّ يتجاذب معه أطراف الحديث. وفي أحد الأيام، نظر الموقر عميقاً في عيني والدي، كأنّه ينظر إلى أعماق روحه، ثمّ دار بينهما الحوار الآتي:

– كامكوامبا

– نعم

– هل تعلم أنّ الرب يحبك، وأنّك تخيِّب ظنّه كلّما شربت الخمر وتشاجرت وافتعلت المشكلات؟

– شكراً أيّها الموقر. ولكن...

– أُبشرِّك؛ فعلى الرغم من أنّك تخيِّب ظنه، فإنة على استعداد لاستقبالك. يريدك أن تلجأ إليه.

– شكراً أيّها الموقر. كما تشاء. قالها والدي، محاولاً الظهور بمظهر الرجل المؤدَّب.

بعد هذه الحادثة بأيام، وبينما كان والدي يشرب – كعادته– في الحانة، اقترب منه رجل وأطاح بجعّته. كان الرجل ثملاً، ويودّ الشجار مع أضخم رجل في المكان. لبّى والدي رغبة هذا الرجل وأكثر. وفي غضون ثوانٍ، كان الرجل مُلقى على الأرض، والدم يتدفّق من أذنيه. أوشك أبي أن يقضي عليه لولا تدخّل بعض الحضور. وسرعان ما وصلت الشرطة، لتلقي القبض على والدي.

قال له الضابط: **لقد تجاوزت الحدّ هذه المرّة.**

كان المدعي العام في دوا شماساً في الكنيسة يُدعى السيد كابيسا، وكان أيضاً أحد الزبائن الدائمين عند والدي. وحين سمع كابيسا أنّ والدي في السجن بانتظار أن يعرَض على المحكمة، نظّم زيارة شخصية له.

قال: **كامكوامبا، لطالما نصحتك ألّا تخوض هذه النزالات التافهة. سيأتي يوم ما تتعرّض فيه للقتل، أو تتسبَّب في مقتل أحد ما، وانظر ما حدث هنا. أنتَ صديقي، ولا أودّ أن أفقدك.**

أكمل كابيسا قائلاً: **من المفترض أن تذهب إلى المحكمة اليوم للنظر في القضية، وعلى الأرجح أنّك ستخسرها وتُزَجّ في السجن، أو حتى تُرسَل إلى سجن زاليكا. أعتقد أنّك سمعت عن الحال هناك؛ فاحتمال خروج الإنسان منه حيّاً ضئيل جدّاً.**

بعدئذٍ، دنا السيد كابيسا من والدي، ثمّ نظر في عينيه بالطريقة نفسها التي نظر فيها الموقر جيه جيه إليه؛ وكأنّه يبحث في الزوايا المظلمة من قلبه، قائلاً: **لكنّني لا أريدك أن تذهب إلى السجن؛ فهناك طريق أفضل يمكنك سلوكه. أنا على استعداد لتمزيق هذه الملفات وإطلاق سراحك. ولكن، عليك أن تعدني بشيء واحد.**

obeikandi.com

قال والدي: **ما هو؟**

أجاب كابيسا: **اتبع طريق الرب.**

أجـل، وافق والدي لكـي يتخلّص من السجن فحسب. وفي واقع الأمر، فإنّ كلام الرجل أثَّـر كثيراً في تفكير والدي؛ إذ لم يشعر بالراحـة طوال الليل، ولا حتى في اليوم اللاحق. ثم إنـه شاهـد حلماً في أثناء نومه في الليلة اللاحقة، وكان كلّ ما تراءى له هو سواد؛ لا شيء إلّا مساحـة مظلمة لا نهاية لها، فشعـر بالارتباك والخوف، ثمّ خُيِّل إليه أنّه أُصيب بالعمى، وأنّه لا يستطيع الخلاص من هذا المأزق. تلا ذلك سماع صوت هادر كأنّه قادم من الجنة، يقول: **ما تفعله سيدمّرك. الجأ إليَّ.**

وحيـن استيقـظ والدي فـي الصبـاح، كان جسده يرتعش كطائر صغيـر. كان الحلم والنصائـح التـي أُسديت إليـه في الأسبوع المنصـرم رسائلَ لا يمكن تجاهلهـا. فأسرع إلى إيقـاظ والدتي النائمة، مخاطِباً إيّاها: **زوجتي، اليوم سألجـأ إلى الرب. لقد رأيت علامات عدّة، وقد حان وقت التغيير.**

في صباح ذلك اليوم، وبدلاً من الذهاب إلى العمل مباشرة، عرّج والدي صوب الكنيسة لمقابلة الموقر جيه جيه. كان الواعظ جالساً إلى مكتبه.

قال والدي: **لقد حضرت، وأنا على أتم الاستعداد.**

لم تدرِك والدتي كُنْه ذلك الرجل الجديد الذي أصبح يعود إلى البيت كل يوم بعد العمل مباشرة، والذي أصبح – فجأة– يملك مالاً للإنفاق على الطعام وشراء الدواء لأطفاله. لقد شعـرت بفرحة غامرة، لكنّها كانـت متوجِّسة حيال حظّها الجيد ذاك؛ ما دفعها إلى أن تقول له كلّ ليلة، وعلى مدار أسابيع: **تعال إلى هنا**، وذلك حال ولوجه الباب، لكي تشم رائحته.

وبينمـا كان والـدي منشغلاً بالترحال والتجـارة والشرب، كان أخـوه الأكبر، جون، قد أسّـس مشروعاً ناجحاً. ففي نهاية الستينيات، وبدايـة السبعينيات من القرن الماضي، كان الرئيس باندا يبني ضيعاً كبيرة قرب مدينتي ويمبي وكاسونغو، الأمر الذي أوجد فرص عمل كثيـرة لساكني هاتين المدينتين. كانت عقود البناء كمناجم الذهب، وكان عمي جون يعرف

بعض المديريـن الذين يوظّفون المقاولين الفرعيين. فأصبح جـون يعمل وسيطاً للتوظيف، ويبحث عـن العمّال المهرة والموثوقين لإنجاز العمل. وكان عملاؤه يدفعون له بسخاء؛ نظراً إلى حسْن اختياراته التي كانت موفَّقة في أغلب الأحيان.

وبعـد عمله مع تلك الشركات سنوات عدّة، تمكّن العمّ جون من توفير مال يكفي لإنشاء مشـروع يُعنـى باستيراد المواد الزراعيـة، حيث كان يشتري البذور وسمـاد الذرة من بعض المُزارِعيـن المحليين، ثـمّ يبيعهـا لبعضهم الآخر، حتـى إنّه كان يملك واجهـة صغيرة في المركز التجاري. أحرز جون نجاحاً كبيراً في عمله. وبعد سنوات عدّة، باع محلّه، ثمّ اشترى أرضـاً مساحتهـا تسعـة وخمسون هكتاراً من الزعيـم ويمبي، وزرعها بالـذرة والتبغ من نوع بيرلي؛ وهو نوع من التبغ المعتدل الذي يُترَك في الهواء الطلق تحت مظلّات يدوية الصنع.

ولما كان أنّ العمّ جون كان يملك مالاً كافياً لشراء سماد جيد، فقد كان التبغ الذي تنتجه مزرعته ذا جودة عالية. لم تكن حقوله تحوي أعشاباً ضارّة قطّ. كانت الأوراق النامية خضراء اللـون دكناء، ثمّ ما تلبث أن تصبح بنية كحليب بنكهة الشوكولاتة، تتخلّلها خطوط حُمر دقيقة بعد التجفيف. كان تبغه يباع بسعر مرتفع كلّ عام في مزاد شركة أوكشن هولدينغز المحدودة فـي ليلونغـوي، حيث كان المزارعون يبيعون حزم المنتوجات التـي يبلغ وزنها مئة كيلوغرام في ساحة المزاد. يُذكَر أنّ الحزمة الجيدة من التبغ قد تساوي ثمن سبعة عشر كيساً من السماد، الأمر الذي يساعد المزرعة على الاحتفاظ بقوتها إذا كان الطقس جيداً.

في عام 1989م (كنت في عامي الأول)، جاء العمّ جون إلى دوا لحضور حفل خطبة أحد أصدقائـه، وعـرّج لزيارتنا. وفي المساء، اصطحبه والدي في نزهـة قصيرة خارج المنزل، ودار بينهما الحوار الآتي:

– لِـمَ لا تعـد إلى القريـة، وتعمل معي فـي الزراعة؟ فالأمور تسير هنـاك على نحوٍ طيب.

– ذلـك صحيـح يـا جون. لكنّ الزراعة تتطلّب وقتاً طويلاً. لقد اعتـدت العمل في مجال التجارة، فكيف لي أن أبدأ مهنة جديدة؟

obeikandl.com

– **صحيح أنّها تستغرق وقتاً طويلاً. ولكن، إذا استثمرته بقليل من المال فإنّ العائدات تكون مُجزية. انظر إلى ما أجنيه من التبغ. من المستحيل تحقيق مثل هذا الربح من التجارة. كم تربح شهرياً من الأرز والملابس المستعملة؟ 5 %؟**

– **4%. لن أتمكّن من إطعام أطفالي عمّا قريب؛ ستعاني تجارتي إن أنفقت المال على الطعام.**

– **إذن، عُد معي إلى الوطن يا أخي الصغير. هناك مكان كبير ينتظرك هناك.**

وفي هذه الأثناء، أخبر والدي العمّ جون أنّه أقلع عن الشرب، وأنّه لجأ إلى الرب.

– **إذن، فكّر في هذه الخطوة بوصفها فرصة جيدة لبداية جديدة. عُدَّها علامة.**

– **حسناً، لقد أقنعتني.**

كان لعائلتنا ثلاثة أطفال حينها (وِلِدت شقيقتي عائشة قبل مدّة قصيرة)، ووجد والدي عَرْضَ عمّي فرصةً سانحة لا تقاوم. وبعد أسابيع عدّة، وبيع الكشك الموجود في السوق، حزمنا متاعنا (الملابس، والقدور والأواني، ومذياع العائلة) على ظهر حافلة تابعة لشركة مالاوي المتحدة للنقل، ثمّ سارت بنا الحافلة أربع ساعات شمالاً، وصولاً إلى مركز ويمبي التجاري، حيث كان في انتظارنا بعض الأقارب مرحّبين بقدومنا. وقد ساعدونا على نزول الطريق المؤدي إلى قرية ماسيتالا، وصولاً إلى البيت الذي يتألّف من غرفة واحدة بجوار منزل العمّ جون. وبذا، أصبح والدي مُزارِعاً، ومن هنا بدأت طفولتي.

بعد وقت قصير من وصولنا، حصل العمّ جون على أرض إضافية من الزعيم ويمبي، فأعطى والدي قطعة أرض مساحتها هكتار واحد، تبعد عن البيت نحو كيلومترين. لقد أصبح بإمكاننا الآن زراعة تبغ بيرلي هناك، ثمّ بيعه، فضلاً على زراعة الذرة والخضراوات (الذرة المشار إليها آنفاً هي الذرة البيضاء). لن تصدّق كمّ المعلومات الذي ستعرفه عن الذرة حتى نهاية القصة.

عندما وصلنا، كان العمّ جون مشغولاً بزراعة التبغ، وقد مثّل ذلك المهمة الأولى التي أسندها عمّي إلى والدي؛ فكان يستيقظ باكراً قبل صياح الديك، ثمّ يتجه نحو المستنقعات

العشبية في الوادي، التي كانت تُسمّى دامبو؛ إذ تحتاج بذور التبغ إلى كميات كبيرة من المياه كي تتمكّن من شقّ طريقها عبر التربة، ما يفسِّر سبب لجوء كثير من المزارعين إلى زراعة مستنبتات بجانب الدامبوس. كان لكلّ مُزارِع قطعة أرض مخصوصة به قرب المستنقع (لم يكن هناك سجلات رسمية، إنّما مجرّد قطع أراضٍ يعرف الجميع لمَنْ تعود ملكيتها). لم تكن ميزة تلك المستنقعات أنّها تحوي الماء فحسب؛ بل كانت تربتها عميقة دكناء غنية بالمواد العضوية التي تلزم فسائل التبغ لتنمو قوية.

وقد جرت العادة على إعداد المستنبتات قبل موسم المطر مباشرة حين تكون الشمس في أشُدّها. كان هذا العمل شاقّاً موحلاً، الأمر الذي جعل والدي يشعر بالإرهاق سريعاً، ويحلم (في تلك الأسابيع الأولى) بكشكه في المركز التجاري، وكيف اقتصر عمله آنذاك على الجلوس والتحدث إلى أصدقائه وزبائنه، وكيف كان يترك الكشك ساعة للاجتماع بعائلته وقت الغداء، حتى إنّه كان يأخذ قيلولة قصيرة قبل العودة إلى العمل. كان من السهل عليه إخبار شقيقه أنّه أخطأ في القدوم إلى هنا، ثمّ العودة إلى دوا، لكنّ والدي واصل العمل وضغط على نفسه. لقد شاهد مقدار المال الذي يجنيه العمّ جون، وأراد أن يصل إلى ما وصل إليه أخوه. كان يعمل بجدّ، ولوقت متأخّر في بعض الأيام، حتى إنّ شقيقه كان يبحث عنه، ظانّاً أنّه تعثَّر وغرق في الدامبو.

وكثيراً ما كان يقول: **استرح يا أخي، ستكمل غداً. حافظ على قوتك، فسيأتي يوم تكون فيه بأمسّ الحاجة إليها.**

فيردّ: **بعد قليل.** كان والدي يقولها وهو مُغطّى بالوحل من رأسه إلى أخمص قدميه.

عندما زار العمّ جون دوا، وذكر أنّ لديه مكاناً كبيراً لوالدي، لم يكن يقصد مكان السكن. لذا، فسرعان ما أصبح منزلنا مكتظّاً بنا الخمسة.

بعد عشر ساعات من العمل تحت أشعة الشمس، كان والدي يعود إلى البيت، ثمّ يواصل العمل في بناء بيتنا الجديد. وكان يقضي العطل الأسبوعية أيضاً على المنوال نفسه. وقد

استخـدم الطين والعشب في صنـع الطوب، بضغطهما داخل قالـب خشبي طوله نحو خمس وسبعين سنتمتراً.

كان والـدي يحفـر حفراً عميقة قـرب الحقول، ويغوص فيها بجسده كلـه؛ لاستخراج الطين. وقد عمد إلى غَرف دِلاء من الطين زنة الواحد منها مئة باوند، ثمّ رفعها على كتفيه، ثـمّ الصعود علـى درجات حفرها في الجـدار بمعول. بعد ذلك، كان يجر الـدِّلاء على عربة مسافة كيلومترين عائداً إلى البيت، حيث يلقيها هناك، ثمّ يعاود الكَرَّة.

بعـد الانتهـاء من صنع الطـوب، كان والدي يمضـي أياماً في الوادي وهـو يقطع عشباً ذا سيقـان طويلة، ليكوّمـه بعدها على شكل حزم مستديـرة. وكان العمّ جون يُرسِـل أحياناً بعض العمّال من الحقول المجاورة للمساعدة في البناء، لكنّ والدي هو مَنْ كان يقوم بجُلّ العمل وحده.

صورة لي في قرية ماسيتالا أيام الطفولة. كنت – دون شكّ– على وشك التسبُب في المتاعب لإزعاج والدتي.

وبعد شهرين، أصبح لدينا منزل مكوَّن من غرفتي نوم. وقد صرّح والدي في وقت لاحق بأنّ ذلك كان أصعب شيء قام به في حياته.

أحسنت يا أخي. قالها العمّ جون في أثناء مروره، ممازِحاً والدي الذي كان على وشك الانهيار من التعب. **إنّه منزل جيد. يحتاج الرجل إلى منزل جيد كما تعلم.**

سكنّا ذلك المنزل ثلاث سنوات إلى أن ضاق بعائلتنا المتنامية؛ فبعد وقت ليس بالطويل، أصبحت العائلة تضم خمسة أطفال، منهم صبي واحد فقط هو أنا. وفي أثناء تلك الحقبة، كان والدي قد كسب مالاً كافياً من الزراعة مكَّنه من استخدام بعض الرجال لبناء مبنيين جديدين. ضمّ المبنى الأول غرفة معيشة وغرفة نوم مع حمام، إضافة إلى مخزن للحبوب. وكان يتعيّن على الشخص عبور ممر ضيّق للوصول إلى المبنى الآخر، الذي ضمّ مطبخاً وغرفة نوم منفصلة لي ولشقيقاتي.

أصبحت غرفة نومي بمنزلة حصن لي يقيني شرّ الفتيات المشاكسات، ومخبأ أختلي فيه مع أفكاري. وأصبحت أحلام اليقظة تراودني كثيراً، ربّما لأنّني أصبحت أكبر سنّاً، و بدأت أشعر بسخافة القصص الشعبية التي كنت أسمعها في طفولتي، مقارنة بالأمور الرائعة التي تدور أحداثها في المزرعة؛ وتمثّل أشياء واقعية وخارقة أكثر من أيّ خيال يمكن لأحد نسجه؛ حتى والدي.

كان هنالك عامل موسمي يستخدمه العمّ جون للمساعدة على أعمال الحصاد والزراعة، يُدعى السيد بهيري، وكان هذا العامل يتمتع بقوة خرافية؛ إذ لم يكن العمّ جون يستعمل الجرّارات لتنظيف الأرض وإزالة الأشجار، إنّما يُرسِل بهيري الذي كان قويّاً لدرجة أنّه كان يتنقل بين شجرة وأُخرى، قالعاً إيّاها من جذورها كما لو كانت مجرّد أعشاب.

كان الجميع يعرف أنّ قوة بهيري مردّها نوع من السحر يُدعى «**مانغولوميرا**»، يمنح الإنسان قوة خارقة. كان مانغولوميرا (نوع من اللقاح ضد الضعف) أفضل وسيلة للدفاع عن النفس. وكان أقوى السحرة في المنطقة هم القادرين فقط على التحكّم في تركيبة هذا اللقاح (مرهم يُصنَع من عظام الفهود والأسود بعد حرقها وطحنها، ويضاف إليه خليط من الجذور والأعشاب). وتتمثّل طريقة استخدامه في فرك الدواء داخل شقوق تُعمَل في براجم

الأصابع بوساطة شيفرة سحرية عادة. وبمجرّد أن يسري المانغولوميرا في دمك فإنّ مفعوله لا يـزول أبـداً، بل إنّه يزيدك قوّة على قوّة. وحدهم الرجال الأشدّاء هم القادرون على تحمّل هذه القوّة التي إمّا أن تزيد أضعافاً مضاعفة، وإمّا أن تدمِّر صاحبها بسرعة.

كان بهيـري قويّـاً لدرجة أنّ أيّ إنسان أو حيوان لم يكـن يجرؤ على تحديه. فبينما كان يعمـل في الحقول ذات مـرّة، إذا بحراشة (أفعـى سامة) سوداء تزحف علـى قدمه وتتأهب للهجـوم. لكنّ بهيري لم يخـف منها؛ إذ أخذ ساق عشب تشبه السـوط، ثمّ جلد الأفعى على ظهرهـا شالاًّ حركتها، ثمّ أمسكها من رأسها ونـزع شوكتها. وقد سرت مقولة بين الناس أنّه كان يحمـل حراشة أخرى في جيبـه بوصفها تعويذة، وأنّها كانت خائفـة منه لدرجة أنّها لم تجرؤ على لدغه.

لكـنّ قوّة بهيـري كانت كبيرة وتـزداد باستمرار، حتـى إنّها جعلته يرغـب في الشجار دائماً. وكان على والدي التدخّل عند حدوث ذلك.

ففـي ظهيرة أحد الأيام، كنـت ألعب في الساحة حين سمعـت ضجة مخيفة قادمة من الحقـول، كأنّها زئير عشرين فهداً مجتمعين. ذهبت إلـى هناك لأجد بهيري وجهاً لوجه مع عامـل آخر يُدعى جيمسـ. كان بهيري يتنفّس بحـدّة وعلى وشك الهجـوم. تحوّلت يداه إلى قبضتين، وبرزت شرايين ذراعيه مثل جذور الأشجار. وكان عندما يفتح فمه ويصرخ، يُخيَّل أنّ الأرض من تحتنا ترجف خوفاً. قال أحدهم: إنّ بهيري كان قد أعطى جيمس مالاً؛ لشراء بعض الحوائج من كاسونغو. لكنّ جيمس كان أُميّاً، فغشّه البائعون، وسلبوه المال.

ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأ بهيري يكيل اللكمات لجيمس. كان بهيري قصيراً سميناً، في حين كان جيمس طويلاً وصُلباً. تبادل الاثنان اللكمات، وصمد جيمس بعض الوقت. لكنّني كنت أدرك أنّها مسألة وقت قبل أن ينفجر مانجولوميرا بهيري، ويسحق جيمس المسكين.

وفـي هذه الأثنـاء، سمع والدي الجلبـة، فجاء مسرعـاً لفضّ النزاع؛ خوفـاً على حياة جيمس. ومع أنّ مفعول «**المانغولوميرا**» لا يتلاشى أو يضمر، فإنه يمكن تحييده مدّة قصيرة باستخـدام أوراق خُضر من نبتة البطاطا الحلوة. هل تعرف كيف يضعف (السوبرمان) عند

مشاهـدة البلورات الخُضْـر اللامعة؟ الأمر ذاته ينطبق على النـاس الذين يتعاطون السحر والبطاطا الحلوة، لا أعرف لماذا!

علـى أيّ حال، عندمـا شاهد بهيري والدي قادمـاً، صرخ مستنجِداً: **سيـد كامكوامبا، أرجوك... بعض الأوراق لرأسي! لا أريد قتل هذا الرجل!**

لم يجد والدي أوراقاً قريبة، فأسرع باتجاه بهيري ولفّ ذراعيه حوله. بدأ بهيري يركل ويصـرخ كحيـوان رُبِط بحبل، لكنّ والدي تمكَّـن من تثبيته بإحكام، ثمّ أخـذه إلى حديقتنا، وقطـف بعض السيقان الطويلة ولفّها على رأس بهيري ومرفقيـه. وما هي إلّا ثوانٍ معدودات حتـى هدأ قلـب بهيري، ثمّ انهار مـن شدّة الإرهاق. وفـي واقع الأمر، فقـد أصبحت أُصدِّق القصص التي سمعتها عن البابـا وعن قوّته الخارقة، بعدما شاهدتـه يصارع شيئاً خطيراً مثل المانجولوميرا.

وفـي صبـاح اليوم اللاحق، وصل بهيري إلى مكان العمل وهو على ما يرام. لكنّ جيمس تغيَّـب بحُجَّة المرض مدّة أسبوع. فقد كانت يداه وذراعـاه منتفختين لدرجة أنّه لم يقوَ على الحركة. أمّا ساقاه فقد عجزتا عن حمله، ولم يكن ذلك نتيجة ضربات بهيري؛ فقد شاهدت جيمس يدافع عن نفسه بضراوة. لكنّه تأثير السحر الذي يتعاطاه بهيري؛ إذ كان قويّاً لدرجة أنّه أثّر في جيمس كما السم.

كان لبهيـري ابن أخ يُدعى شاباني، وكان هذا يتباهى بأنّه سينغانغا حقيقي، وأنّه يملك عقـار **المانغولوميـرا**. كنت أنا وجلبيرت نعتقد أنّها مجرّد ادّعـاءات، لكنّنا لم نتأكّد تماماً. كان شابانـي فتًـى صغيراً مثلنـا، ولم يكن قويّاً جـدّاً، لكنّه كان يتباهـى بنفسه كرجل يملك عضـلات منتفخـة كتلّ النمل. وقـد أوقعنا ذلك الأمر في حيرة. لما لـم يكن شاباني لم يكن يرتـاد المدرسـة، وفضّل العمـل في الحقول مع عمـه، فقد كان يتسكّع عادة حـول بيتنا عند عودتي ظهراً.

كنـت فـي التاسعة مـن العمر حينها، ولم أكـن قويّاً جدّاً. كمـا لم أكن رياضيّـاً أيضاً. وعلـى الرغم من حبي الجارف لكرة القدم، بإنني كنت أقضي معظم المباريات على مقاعد

الاحتياط. وكان الطلاب المتنمرين يلاحقونني ويعذبونني في ساحة المدرسة. لقد تعرّضت في تلك الحقبة لإذلال كبير.

في أحد الأيام، أخذني شاباني جانباً بعد سماعه إحدى قصصي المثيرة للشفقة، ثمّ قال لي: **إنّك تشكو من هؤلاء المتنمرين يومياً، وقد سئمت من سماع ذلك. يمكنني منحك بعض المانغولوميرا. بوسعك أن تصبح أقوى صبي في المدرسة. سيخافك الطلاب الآخرين كافة.**

كان الحصول على قوى خارقة هو أحد أحلام اليقظة المتكرّرة دون شك. وقد تخيّلت نفسي – أكثر من مرّة– عملاقاً في ملعب كرة القدم، ولديَّ رِجلان ضخمتان كمنصّات الصواريخ. لو استخدمت المانغولوميرا، فسأتمكّن من دحر المتنمرين بلمسة واحدة، وسيبولون في سراويلهم من شدّة الخوف.

لطالما حذّرَنا والدي من العبث بالسحر. وها هو ذا شاباني يقف هناك الآن، مبتسماً كالنمس، وأتخيّل والدي يرمقني بنظرة شزر، وهو واقف بجوار تمثال السيد المسيح. فهززت رأسي لطرد التخيّلات، وبدأ فمي يتحرّك، قائلاً: **حسناً، اقبلْ**. ثمّ سمعت شاباني يقول: **سنكمل العملية بين أشجار اليوكاليبتوس خلف بيت جيفري. قابلني هناك بعد ساعة، واجلب معك عشرين تامبالا.** كنت أول الواصلين إلى الغابة، فانتظرت في الظلال المعتمة، وذهني مليء بكثير من الاحتمالات. وفجأة، ظهر شاباني من بين الأشجار. كان يحمل كيساً أسود ذا قاع متدلٍّ، يحوي شيئاً ثقيلاً، شيئاً قويّاً.

سألني: **هل أنت مستعد؟**

قلت: **نعم، أنا مستعد.**

قال: **إذن، فلتجلس.**

جلسنا على التراب وعلى أوراق الشجر في حين فتح هو الكيس.

قال: **سنبدأ بيدك اليسرى؛ نجرح البراجم، ثمّ نُدخِل الدواء في شرايينك، ثمّ نفعل الشيء نفسه بيدك اليمنى.**

قلت: **لماذا اليسرى أولاً؟**

قال: **أنت من أصحاب اليمين يا رجل. يدك اليمنى هي القوية. أنا أريد أن أمنحك قوة متساوية لكي تكون لكماتك قاضية من الجهتين كلتيهما.**

قلت: آه، **فهمت.**

دسّ يده في الكيس، ثمّ أخرج علبة ثقاب، قائلاً: **في هذه العلبة عظام فهود وأسود مطحونة، إضافة إلى جذور وأعشاب فاعلة.**

ثمّ أخرج حزمة ورق تحتوي على مزيد من الرماد الأسود، وبدأ يخلطها بالمواد الأخرى، وهو يقول: **المواد الأخرى نادرة جداً، وهي موجودة في أعماق المحيط فقط.**

قلت: **كيف جلبتها إذن؟**

قال: أنا لست شخصاً عاديّاً يا فتى. لقد حصلت عليها من قاع المحيط.

قلت: **حسناً.**

قال: **بقيت هناك ثلاثة أيام كاملة. لو أردت لأخذت كلّ شخص في قريتك المجنونة هذه، ووضعته في وشاحي، ثمّ قذفت به من على كتفي. لا تعبث معي يا صغير. إذا أردت الحصول على هذا النوع من القوّة، فيتعين عليك دفع كثير من المال. ما أمنحك إيّاه الآن هو مجرّد جرعة صغيرة.**

بعد ذلك، أخرج شفرة من دون أن أراه حتى ظهرت فجأة، وقبل أن أُدرك ما يحدث، أمسك يدي اليسرى، ثمّ جرح برجمي الأول.

صرخت: آه.

قال: **اثبت، ولا تبكِ! لن يعطي ذلك مفعولاً إذا بكيت.**

قلت: **أنا لا أبكي.**

بدأت براجمي تتورّم واحداً تلو الآخر، وانهمر الدم الفاقع على يدي. عندئذٍ، أخذ حفنة من المسحوق بأصابعه، وفركه على جروحي الدامية. كانت تلسع كفحم ساخن. ثمّ تنفّست الصعداء حين فرغ من يدي الاثنتين.

obeikandl.com

قلت: **أتراني بكيت؟ هل تظن أنّه سيعمل؟**

قال: **لاشك في ذلك.**

قلت: **متى سأصبح قويّاً؟**

فكّر هُنيهة، ثمّ قال: **اصبر ثلاثة أيام حتى يسري المزيج في عروقك. ستحسّ بذلك متى أصبح جاهزاً.**

قلت: **ثلاثة أيام.**

قال: **نعم، ومهما فعلت؛ فلا تأكل البامية أو أوراق البطاطا الحلوة.**

قلت: **سأتذكر ذلك.**

أضاف: **أمر آخر، لا تُخبر أحداً.**

خرجت من الغابة، ناظراً إلى جروحي ويداي المتفحّمتين اللتين بدأتا تنتفخان. لكنّهما بدتا قويتين. تخيّلت ذراعيّ ثقيلتين تتأرجحان على جانبيّ كمقبضي معول ضخمين. كما مُلئت رئتاي جرعة ثقة.

اختبأت تلك الليلة في غرفتي ولم أتحدث إلى أحد. ثمّ خلدت إلى النوم وقد راودني شعور جيد. قلت لنفسي: **أنا رجل كبير الآن**، خلدت إلى النوم، رجل كبير.

بدا الانتظار لثلاثة أيام وقتاً طويلاً، لكنّ الظروف كانت مواتية. فقد كنّا في الإجازة الصيفية، وكان من المفترض أن أذهب إلى دوا صباح اليوم اللاحق؛ لقضاء بعض الوقت برفقة جدّي وجدّتي. كانت دوا المكان الأمثل لصقل قوتي قبل العودة إلى بيتي وأنا شخص آخر أتمتع بقوى خارقة.

مرَّت الأيام الثلاثة ببطء، وظننت أنّني سأموت من الملل.

وعلى الرغم من حبي الشديد لجدّي وجدّتي، فإنه لم يكن هنالك من أمر لأفعله في بيتهما. وكما ذكرت سابقاً، كانت جدّتي امرأة قوية، صنعت طوبها بنفسها، وكانت كثيراً ما تسند إليَّ الأعمال.

obeikandi.com

في اليوم الرابع، استيقظت وأحسست بالتغيّر حالاً. جلست على السرير، وشعرت بأنّ ذراعيّ أخفّ من ذي قبل، لكنّهما كانتا قاسيتين كجذوع الأشجار. كانت يداي صُلبتين كالصخر. خرجت من البيت، وبدأت أركض في الطريق؛ لأختبر مدى سرعتي. وكان إحساس الرياح التي تلفح وجهي مختلفاً عمّا قبل بكلّ تأكيد.

في ظهيرة ذلك اليوم، دعاني خالي مادا إلى مشاهدة إحدى مباريات دوري كرة القدم التي تقام على ملعب البلدة، فلبّيت الدعوة على أمل اختبار قواي. جمعت المباراة فريقي دوا الطبي بالزراعي. كان المكان غاصّاً بالجمهور كما هو متوقّع. وقد جرت العادة أن تعتني النسوة بالأطفال على إحدى جهات الملعب، في حين يربض الرجال والفتية قرب بعضهم بعضاً على الجهة المقابلة، وهم يدخنون السجائر، ويكيلون للحكام الشتائم.

لم أكن مهتمّاً كثيراً بالمباراة؛ فقد كنت أبحث عن صبي بين الجمهور، حتى تمكّنت من مشاهدة أحدهم (بمثل عمري تقريباً) يقف عند زاوية الملعب البعيدة. بدا لي أنّه وحيد، لذا قمت بحركتي. تجاوزت الحشود متجهاً إليه، وفي أثناء مروري من أمامه، دست على قدمه الحافية بنعلي.

صرخ وهو يتقافز متألّماً: **معذرة، لقد وطأت للتو على أصابع قدمي!.**

نظرت إليه ببرود.

أقول إنّك وطأت على أصابع قدمي. لقد آلمني ذلك.

قلت: **إذن، ماذا تريد؟**

قال: **ألا ترى أنّ موقفك ينمّ عن وقاحة؟**

قلت: **وماذا ستفعل حيال ذلك؟**

قال: **ما الذي سأفعله؟**

قلت: **قد سمعتني. لِمَ لا تفعل شيئاً حيال ذلك أيّها المغفل؟**

قال: **حسناً، سأضربك.**

قلت: **هذا ما كنت آمل سماعه.**

obeikandi.com

بدأنـا ندور في حلقة مفرغة، ولم أنتظر كثيراً. فقد أطلقت وابلاً من اللكمات السريعة لدرجة أنّ ذراعيّ أصبحتا كالخيال أمام عيني. لكمته من اليمين واليسار ومن أسفل، وكانت يداي الحديديتيان تتحرّكان بسرعة لدرجة أنّني لم أحسّ بهما تهشّمان وجهه. لم أرد أن أقتل هـذا الفتى المسكين (فقد نسيـت أوراق البطاطا)، فتراجعت إلى الخلف مبتعداً عنه. لكنّني فوجئت أنّه لا يزال واقفاً على قدميه. ليس ذلك فحسب، بل كان يضحك أيضاً.

وقبل أن أتمكّن من توجيه لكمة أخرى، شعرت بألم شديد بعيني اليمنى؛ وقد تكرّر هذا الشعـور أكثر من مرّة. وسرعان ما وجدت نفسي مُلقًى على الأرض، وقد انهال بالضرب على وجهـي ورأســي، كما داس بقدمه على بطني. وفي الوقت الذي اندفـع فيه عمّي نحونا وأبعده عنّي، كنت أبكي وأنا مُغطّى بالغبار.

صـرخ عمي: **ما الذي تفعله يا ويليام؟ أنتَ أعقـل من أن تدخل في شجار. حجم هذا الفتى ضعف حجمك!.**

شعـرت بإهانة بالغة، فركضت إلى بيت جدّي، وبقيت داخله حتى حان وقت عودتي إلى المنـزل. وحالما وصلت إلى هناك، بحثت عن شاباني وواجهته، قائلاً: **إنّ سحرك لا يعمل! لقد وعدتني بالحصول على القوّة، لكنّني تعرّضت للضرب في دوا بدلاً من ذلك!.**

قـال: **إنّـه يعمـل بالتأكيد.** قالها، ثمّ فكّـر للحظة: **اسمع، هل استحممـت يوم أعطيته لك؟.**

قلت: **نعم.**

قال: **ذلك هو السبب إذن. إذا تناولت دوائي، فلا تستحم أبداً.**

قلت: **لم تذكر ذلك قبلاً.**

قال: **لقد فعلت.**

قلت: **ولكن...**

كمـا ترون، فقد تعرّضـت للخداع. تركتني تجربتــي الأولى والوحيدة مـع السحر بعين مدماة ويدين تنبضان ألماً من الدواء الفاسد. قلت لنفسي: إذا كنت محظوظاً فقد تصيبهما

obeikandl.com

العدوى وتسقطان. ثمّ بدأت أتخيّل نفسي وأنا في السوق، متسوّلاً، مقطوع اليدين، لا يمكنني حتــى استخـدام الكنيف (الحمّام). سيطر عليّ الخوف من ذلــك لساعات في وقت ما. أؤكِّد لكم أنّ حدوث مثل هذا الأمر سيكون رهيباً!

obeikandl.com